ܒܝܬ ܐܪ̈ܟܐ ܕܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ
**Syriac Literature: Ephraim**
Beth Mardutho Library

F_662

# مار افرام الملفان

في

الكنيسة السريانية

وهي

المحاضرة التي القاها نيافة مارديونيسيوس بهنام متروبوليت
لبنان للسريان الارثوذكس في مركز حركة الشبيبة
الارثوذكسية في المصيطبة
سنة ١٩٦٢

طبعت على نفقة جمعية مار بطرس وبولس
للسريان الارثوذكس - بيروت - المصيطبة

ܒܝܬ ܐܪ̈ܟܐ
ܕܡܢܝܚܐ ܡܠܦܢܐ ܐܒܪܗܡ ܢܘܪܐ ܐܘܪܗܝܐ

Ex Libris
Beth Mardutho Library
The Malphono Abrohom Nuro Collection

# مار افرام الملفان في الكنيسة السريانية

ان حياة العظماء اضواء ساطعة تنعكس على قلوب الساكنين في الظلمة وظلال الموت فتنيرها وتنعشها وتهديها سواء السبيل · وبلسم طاهر ينسكب على الارواح فيدمل جروحها ويسكن روعها · وهمسات خفيفة ونغمات لطيفة تتغلغل الى قلب الحقب والدهور فتشنف الآذان الساهية عن سماع صوت الحقيقة· أجل ان ابطال الايمان هم عبر خالدة في حياتهم ومماتهم للاجيال السائرة في موكب العظمة والعبقرية ، تلمع ذكراهم في كل جيل في سماء الحياة لتعيد للبشرية ما دفنته من العظائم والامجاد في اعماق الماضي السحيقة ، وما طوته من اجمل الآثار بين جدران الاهمال والنسيان · ولا سيما اولئك الذين ميزتهم السماء عن سواهم وبعثتهم الى الارض قادة ومرشدين ، وانطقتهم آي الوحي والالهام وبعثت من افواههم انغام العزة والجلال ·· فهم انبياء ملهمون لم يتكلموا بمشيئة انسان بل كانوا مسوقين من الروح القدس ، مفروزين منه دعاة لبشارة الخلاص واصواتا لكلمة الرجاء · وعظمة هذا النفر القليل من الرجال لم تقتصر على الوراثة والتقليد ولم تخص عائلة واحدة أو بلدة واحدة ، بل هي امكانيات الانسان وطموحه الشخصي الذي يسمو به الى ذروات الرفعة والمجد · والعالم لا يقيس رجاله الملهمين باحسابهم وانسابهم بل بمؤهلاتهم التي يخدمون بها مجتمعهم·ولو تصفحنا التاريخ لرأينا أعظم اساطينه واشهر ابطاله دينيين أو مدنيين أو عسكريين قد ظهروا من قرية صغيرة وترعرعوا في بيوت وضيعة وتلقوا معلوماتهم في مدارس بدائية بسيطة · ولكن هي هممهم الوثابة وقلوبهم الجريئة وعقولهم الثاقبة حدت بهم واوصلتهم الى العروش والمراكز ·

والكنيسة السريانية تفاخر دوما بعلمائها الافذاذ وملافنتها الميامين الذين برزوا في كل جيل كالنجوم السوافر فأضاءوا ابناءها ومنحوهم مثلا سامية في حياة الكمال الروحاني والتفاني في سبيل الخدمة والواجب ، وساروا امامها يحرقون ذواتهم بخورا طيبا على مذبح حبها ، ويتحفونها بالروائع الخالدة من نتـــاج افكارهم ، وعصارة أدمغتهم • ومنهم بلبل القرن الرابع الغريد ، وكنارة الروح القدس مار افرام السرياني الملفـان العالمي الذي وهب نفســه لله وكنيستـــه ، فأمست واصبحت وغفت واستيقظت على انغامه الشجية واناشيده العذبة وقصائده السحرية •

ولكي نحيط بحياة هذا الملفان الخطير الحافلة بالجلائل والمكارم • علينا ان ندرس ميزاته التي اختص بها فنخلص الى نتيجة واحدة هي ، اعلان قداسته وملفنته الحقة التي تنادي بها الكنيسة السريانية خاصـة والمسيحية عامة شرقا وغربا ، وذلك بمرورنا على النقاط التالية :

**١ ـ حياته :** في مدينة الحدود «نصيبين» من مدن ما بين النهرين• وفي ليلة ظلماء من ليالي الشتاء القاسية بينما كان الناس هاجعين في بيوتهم من شدة الزمهرير ، وبعضهم قد غط في نوم عميق ، والبعض الآخر قد سبح في حلم جميل • كان يوسف النصيبيني وزوجته يتأملان بعظائم الله وعجائبه، وهما يتوقعان عطية من لدنه بين اللحظة والاخرى، واذا بالسماء تفتقد ليلتهما تلك بالبدر افرام طفلا تلقيه بين يديهما فيستمد النور من جبينهما المشعشع باضواء الفضيلة والتقوى والايمان • انهـا السنة الثالثة بعد المئة الثالثة للذي قال « أنا هو نور العالم » فتح فيهـا افرام عينيه على مرأى الحياة فتربى بين احضان والديه وترعرع على كل حميد ومجيد من الفضائل والمحاسن العاليـــة ، وانطبع بحب الكنيسة وخدمتها رغم ما صادفه من الغموض والمشاكل في حياته • وتتلمذ منذ صغره لاسقف المدينة مار يعقوب النصيبيني، وأخذ يرد الى ينبوع كتاب الله العزيز يغرف منه شاربا ويتمون لنفسه التواقة الى كلام الحياة ويعد ذاته ليكون يوما اناء مختارا لكنيسة المسيح المقدسة • وكان طائعـا له وديعا اديبا • لطيفا في معشره وتصرفاتـــه ، فلقي من معلمه كل عطف واهتمام ، كما لمس الاخير في تلميذه اقصى حدود الذكاء والنجابة مـا

زاده سرورا وفكرة طيبة عنه • وكان يفتخر به ويتباهى بين ابناء نصيبين باجتهاده الفائق وولعه الشديد في قراءة شروح وتفاسير الكتاب العزيز حتى بلغ المكانة المرموقة التي استحلها بجهوده ومساعيه الجبارة •

٢ ـ **مار افرام المعلم** : راح التلميـذ **المجتهد** والفتى الملهم يشق طريق احلامه وآماله ليحقق رسالته المثلى التي منحته اياها السماء • فقد سكب معلمه في نفسه من روحـه وتقواه حيوية ونقاء وطهرا ، فأخذ المدرسة على عاتقه واشتغل فيها نحو ثمان وثلاثين سنة يؤلف ويصنف يبدع ويمتع يعلم ويفسر • حتى اضطر ان يجلوهـا الى الرها في أواخر سنة ٣٦٣ عندما استولى الفرس على مدينة نصيبين• والرها أيها السامع العزيز مدينة الطهر والقداسة آنذاك • يعطر جبلها بأريج الروح وعبير الكمال • هناك سمع عن بعد انغام الملائكة تتجاوب بين هاتيك الوديان فتسحر الالباب وتطلق الارواح المكبلة بقيود الجهل والشقاء حرة مغردة كالبلابل الصداحة على الافنان • ذاك هو جبل الرها الذي تطلع اليه افرام فرأى فيه الصوامع والاديرة التي بلغت زهاء الثلاثمائة والتي حوت في أواخر هذا القرن ما لا يقـل عن التسعين الف راهب • هنـاك يتجرد الانسان عن ما يسمونه الجسد ويتمنطق بأجنحة الروح ليقطع البوادي والقفار ويقفز الجبال والروابي فيسير في طريق الشاعرية البكر التي اجتازها موكب القرن الرابـع • في تلك الربوع الهاجعـة تحت ستر السكينـة الرهيب دوى صوت افرام العظيم الذي ركبت الروح القدس أوتار قيثارته السحرية فبعثت الحياة في قلب الاموات • وألقت النور في أعمق ذرات الظلام • وسار في الرعيل الاول يحمل لواء الشعر في كل المناسبات • وها هي قصائده ستبقى خالدة بين شفاه ابنـاء الكنيسة وسيظل صدها عالقـا بين سكان التراب ولا سيما قصيدتاه في العلم والجوهرة تفيضان حكمة وبلاغة وتخلقـان من التلميذ معلما ومن المعلم فيلسوفا عظيما ومفكرا كبيرا ولاهوتيا عميقا • فهما ليستـا قصيدتين وحسب بـل مدرسة تسيران بالتلميذ المبتدىء خطوة فخطوة من تلقين وتفسير الى ايضاح وتنوير حتى تصلا به الى الغاية المنشودة والنتيجـة القصوى •

كنا صغارا ننصت الى المعلم يشرح لنا طرفا من حيـــاة مار افرام السرياني ويصفه يلقي درسا من دروسه الخالدة على تلاميذه في فوائـد العلم باسلوبه الجذاب الذي تضفي عليه هيبته جمالا وروعة، وتزيده بلاغة وفصاحة وابداعا • فعندما كان المعلم الواصف يسمعنا هذه الاخبار عن المعلم الموصوف ، كانت عقولنا تسبح في جو الرها الفسيح • وارواحنا ترقص نشوى على هاتيك الروابي المقدسة ، تستنشق عبير الوحي والالهام مضوعا من جنبـات ذلك الجبل الطهور • فكيف بالتلاميذ امـــام المعلم الموصوف يتلقون الدرر الخوالد والآيات البينـــات من فيه ، وينتشلون النغمة العذبة من وتر قيثارته انتشالا • هل كنا في حلم عميق أو اغفاءة خفيفة أو واقع محسوس ؟ لا شك في اننا كنا في واقع ننصت ونسمع • ولكن هي الدهشة والحيرة حلقتا بنا الى أبواب الرها بالشوق واللهفة لنشاطر تلاميذ افرام في نشوتهم ولذتهم • فانصت ايهـا السامع الحبيب • الى بعض مقاطع قصيدته في العلم : « أللهم امنح العلم لمن يحبه واجعل الذي يعلم جيدا عظيما في ملكوتك » • وكاني به يقدم القصيدة بالدعاء الحار الى الله ليفتح اذهان الصغار ويطهرها ويعدها لاقتبال العلم • ثم يردف بقـــوله « واجعل محب العلم مجتهدا دائمـــا • لان من يحب التواني لا يستطيع النجاح ، فاتخذ اذا ايها الانسان النشاط وابتعد عن الكسل لانه كنز الخسارة العظيم • واقرأ الكتب باهتمام لكي تنـــال منها لذة وابتعد عن محبة البطن لئلا تخسر مـــا ربحت » الى ان يقـــول « تمسك بالتقوى واحترم والديك ايها التلميذ لكي تتخلص بدعائهما من فخـاخ الحياة وعثراتها • وانتخب لك اصدقاء من الرجال الصالحين الذين يحبون الله ، ولا تصاحب السكيرين حتى في الطريق • اقتن الذهب بمقـــدار محدود والعلم بلا حـــد أو قياس • لان الذهب يكثر القلق والالم ، اما العلم فيمنح الراحة واللذة • واذا احرزت ذهبا وفضة فلا تتكبر • بـــل كن متواضعا في كل تصرفاتك • كن متواضعا في حداثتك لكي ترتفع في شيخوختك ، وعود نفسك الاخلاق السامية فتحيا بسعادة وسرور • تعلم هذه واكملها بالفعل فتكون مطمئنا انت وابواك ومعلموك • وزود نفسك بالفضائل طالمـا لديك فرصة سانحة ، ولا تكن ناقصا اذا مـــا غادرت هذه الدار ، عين لك وقتـــا لكل عمل كما للاكل والشرب كذلك

للعلم والدرس وللراحة والسعادة • واشفق على صبوتك لان آلام الشيخوخة تطاردك • وافطم فمك عن كل تجديف وقسم واجعل لسانك قيثارة مرنمة •

٣ ـ **مار افرام الشاعر :** كيف تريد أيها السامع العزيز ان تعرف الشاعر أو تعرِّفه ؟ بل أي شعر تحب ان تسمع من فيه لتقدر فيه الشعور والابداع ؟ فافرام العظيم فتى من فتيان نصيبين امسى نزيلا من نزلاء الرها ، احب الكنيسة فاحتضنته ، قدس الرهبنة فتبنته ، فتح فاه بتسبيح الله وحمده ورغب في تنظيم هذا التسبيح والحمد، فسمعت صوته السماء ولبته ، ووضعت بين يديه الناعمتين قيثارتها الروحية الخالدة وقالت دونك الينبوع فاغرف من وحيه والهامه ، فجاء بلبلا غريدا وجدولا رقراقا وروضا خضيلا وسحرا حلالا • عكست شمس البر والشفاء بأجنحتها عليه من خيوطها فانارت فيه قلبا واضرمت فيه حبا وقدست فيه لبا ، فجاء افرام آية من آيات ربه واعجوبة من اعاجيب دهره•دعته الكنيسة السريانية بلبلها لانه شنف اسماعها بانغام الخلود والحان المجد•وكنته شمسها لانه سطع في سمائها مشعشعا وهاجا،أحرق بخيوط اشعته براثن الشر والفساد والهرطقات ـ وسمته نبيها لانه جاءها بكل غريب وعجيب من اسرار الازل والسرمدية • هذه هي صفات مار افرام الشاعر التي قدمته للكنيسة شاعرا موهوبا (*) •

والان رافقني أيها السامع الحبيب بالروح والايمان في جولة أخرى مع هذا الشاعر • فبعد ان رأيناه في مدرسة نصيبين وكنيستها يحلق في اجوائها طروبا نشوانا ، واذا به يحط فجأة فوق صروح الرها وينادينا ان نتبعه فنجيبه منذهلين ما هذا الانتقال المفاجيء ؟ دعنا نتمتع بطبيعة نصيبين وجمالها اولا ونستنشق هواءها العليل ونشرب ماءها السلسبيل • فيقول لقد انقضى عهدها وأفل نجم سعودها ، وها هي الرها تدعوني لاحيا فيها ، فان جبلها المقدس يناديني لاشارك نساكه ورهبانه بحياتهم فهلموا معي • وسرنا وراءه تقودنا محبة الشعر وتهدينا قيثارته العذبة•وامتثلنا

---

(*) وقد اختص في نظمه بالوزن السباعي الذي ابتكره ونسب اليه•

بعد لحظات بين يديه في مدرسة الرها يلقن الدرس الثاني في الايمان واسرار اللاهوت الغامضة محلقا تارة الى أعلى الاجواز ومنتزعا طورا الى أقصى حدود الواقع · والتلاميذ يحيطون به كالسوار بالمعصم والهالة بالقمر ، متشبها بمعلمه الاول يسوع الناصري مجتمعا بين تلاميذه في الموعظة على الجبل ، فاسمعه يخاطبهم ويقول في قصيدته « الجوهرة » تناولت يوما يا اخوتي جوهرة فرأيت فيها اسرار السماء واشكال العظمة واشباهها ، وبينما كنت اتطلع اليها واذا بها تنقلب ينبوعا فارتشف منها اسرار الخلود· وضعتها في راحتي وتأملت بها مليا فرأيت أوجه كثيرة نورانية تحيطها ، فاذا بها رهبة الابن الوحيد غير المدركة المحاطة بالنور · رأيت في نقائها رب النقاء وفي طهرها سر تجسد ربنا العجيب وعدم انقسامها ، ورأيت الحق الذي لا ينقسم · لم تكن هناك العليقة ولم تكن النار تضطرم فيها ، بل ان رب العليقة والنار كانا يتراءيا لي· وهذه الجوهرة التي رأيتها كانت صخرة البيعة المقدسة ، وكان ابن الله في داخلها مجللا بالسحاب فحملته مثلما تحمله السماء ، وسطع بهاؤه المتألق من داخلها ورأيت فيها اسراره وامجاده وعظمته ، كما رأيت عطفه ولمست فيها خفاياه وظواهره فتعاظمت امامي ، واضحت فلكا فتهت به · رأيت فيها اشعة لا تدركها الضلالة لانها ابنة النور ، واشكالا ناطقة بدون لسان واسرارا متدفقة بدون شفاه وقيثارة صامتة ارسلت انغامها بدون اصوات · ارعد الصافور ولمعت الرعود وكأني بها تقول « لا تتجاسر يا ابن آدم اترك هذه الاسرار واكتف بالظواهر وانظر ففي الصحو مطر آخر ، واملأ ينابيع اذنيك اشعار الظفر من هذه السحب » ثم غاب المعلم في غيبوبة روحية طويلة وبعدها استفاق كالمصعوق فرأى تلاميذه وقد علتهم الحيرة والانذهال ، كما كانت النار تنقذف شررا من عينيه وعاد الى نفسه مبتسما وقال : « اجابتني الجوهرة وقالت اني ابنة البحر العظيم وقد صعدت من ذلك اليم الخضم ، والاسرار الكامنة في حشاي هي اعظم من ذلك المحيط · فتستطيع ان تدرك امواج المحيط ولكنك لا تقدر ان تفهم اسرار رب المحيط · رأيت الغواصين ينزلون ورائي واجمين لكي يخرجوني من البحر الى اليابسة فلم يستطيعوا الاحتمال لحظة واحدة · ومن يستطيع ان يكتنه اعماق الالوهية ؟ ان

لجج الابن الوحيد مفيدة ضارة. ألم تشاهدوا لجج البحر تحطم السفينة عند هياجها ، ولكن اذا طاوعتها السفينة نجت بنفسها . لقد غرق المصريون في أعماق البحر دون ان يستطيعوا السوال، وهلك العبرانيون في ربوع البر فكيف تستطيعون الحياة ؟ وهوذا أهل سادوم قد لفحتهم النـــار فكيف تنتصرون انتم يا أبناء التراب ؟ امام هذه الجوائح ارتجت اسماك البحار وخاف لوياثان . فهل لكم قلوب صخرية تقرأون هذه وتنسون ؟ آوّاه ان العدالة قد سكتت وهناك خطر عظيم . كانت الطلبة ممزوجـــة بالدعاء فلأي منهم الغلبة ؟ ومن اللسان الواحد كان يتدفق التسبيـــح والبحث العميق . فأيا منهما نسمع ؟ من فم واحد تخرج الصلاة والبحث فالى أيهما نصيخ ؟ ان يونان جاور اعماق المحيط فارتجت الاسماك خائفة لانه من يستطيع ان يهرب من وجه الله ؟ لقد هرب يونان وانتم تحاولون البحث العميق عنه . لا لوم عليك من تعريك ايتها الجوهرة ، فقد شغف بحبك التاجر الذي ينزع قلبه ليكسوك ، لان لباسك هو نورك وثوبك بهاؤك ايتها العريانة . انت تماثلين حواء التي كانت كاسية في عراها ، فلعن الله من اغراها وغادرها عارية . لكن الحية لن تقوى على تعريتك من مجدك ، وبسرك تتوشح النساء بالفوز في جنة عدن الخ .. وراح الشاعر الفنان يتصرف بقصيدته ويلعب باوتار قيثارته مشغوفا بحب الجوهرة الغالية التي قبض عليها بكلتي يديه وتمتع بجمالها وروعتهـا مفيضا عليهـــا من المحاسن مـــا لا يستطيع عقل بشري محدود تصوره وادراكه ، الا من أوتي كشاعرية افرام، وملك قلبا كقلبه وروحا كروحه. ان النغمة العذبة واللحن الشجي يبقيان جامدين اذا لم تلامسهما يـــد الموسيقار بأوتار العود والقيثار ليسمع صداهما الحي وتظهر رنتهمـــا المنعشة . وهكذا عندما تحركت شفاه افرام وصدح لسانه بآي السحر والبيان انطلقت الحياة وبرزت الروعة .

٤ ـ **مار افرام الناثر :** لم يكتف القديس افرام بما نفثه من القصائد والاناشيد والابتهالات والتضرعات بل حبر رسائل كثيرة نثرية للرهبان والمتوحدين . كما عُثِر له على بعض الفصول من كتاب الآراء وقوانين الرهبنة ورسالة مار يعقوب الرهاوي الرابعة عشرة التي ذكر فيها مار افرام عن السبتيين ، ورسالته الى الشماس جاورجي ، وفي مقدمة هـذه

كلها الشروح الكثيرة لمعظم اسفار الكتاب العزيز روحية ولفظية · وقد رجع الى تفسيره كثيرون من المفسرين والآباء · ووصلت الينا احدى وخمسون رسالة منقولة من اليونانية فيها الجيد وفيها الملحون · فضلا عن بعض التراجم لبعض النساك في عصره · وله صلوات وادعية لاعياد خاصة · وقد بلغت قصائده وأناشيده نحو اثنتي عشرة ألفا ما عدا التضرعات وبعض القطع الاخرى ·

٥ ـ **مار افرام الموسيقار** : لم تعرف الكنيسة السريانية افرام العظيم ملفانا لها وشاعرا وكاتبا ومفسرا وحسب ، بل عرفته قبل كل شيء قيثارة روحية تجسمت فيها وبين ايدي ابنائها وعلى سمعهم وبصرهم ، واعطتهم انغامها وأناشيدها واطلعتهم على حقائق اللاهوت السامية · ومكانة السيدة العذراء ومحبتها وكرامتها ، وعلى عظمة القديسين والمجاهدين وابطال الايمان بقطع تلج الى قرارة النفوس فترطبها كما يبلل ندى الفجر المبسام ثغور الزهور والرياحين عندما يلامسها · لا سيما وان الروح البشرية قد حطمتها الكلمات وعبثت بمقدراتها التعابير والاصطلاحات الجافة · فلم تعد تسمع الا كلمات : الحقيقة ، والقانون ، والشريعة ، والدستور ، والمنطق ، والواقع ، ولم تُحِس بصدى لهذه الالفاظ ، لانها اسمى من ان تفهم من الواقع المادي شيئا · وغذاؤها ليس من هذه الحياة ، لذلك فان الاناء المصطفى كان يشتاق ان يتجرد من الجسد ليكون مع المسيح · أجل ان الناموس اليهودي والفلسفة اليونانية والشريعة الرومانية لم تعد بمقدورها توجيه النفس البشرية الى طرق الخير والغاية المنشودة · فكل منها كان يعرّف الحقيقة باسلوبه الخاص ، حتى كبت البشرية كبوتها القاسية التي كادت تودي بها لو لم تفتقدها الرحمة الالهية من السماء بالشريعة الروحية السمحاء ، التي هبطت على أنغام المجد والتسبيح المجلجلة في اعالي الفضاء تطلقها اجناد العلى الذين آمنوا بالمسيح يسوع وكان يدفعهم الروح والايمان « لان الكلام الذي جاء يكلمنا به هو روح وحياة » كما يقول الانجيلي يوحنا · وهكذا ظهر افرام السرياني في كنيسته شاعرا موسيقيا جاء يعلم ابناءها دروس الايمان بانغام وألحان ويخلق منهم أجواقا سماوية تضارع اجواق الملائكة ·

٦ ـ **مار افرام القديس** : كان مار افرام زاهدا متنسكا متميزا في

فضائل العفة والتواضع معتصما بدينه متمسكا بايمانه ، نارا لاهبة على الهراطقة المضلين ، وجنديا امينا على حراسة معقل الارثوذكسية ، بسيطا في لباسه قانتا لربه ، بعيدا عن الشهرة العالمية ، حتى بلغ به تواضعه الى تصريحه بعدم استحقاقه لنوال الكهنوت الشريف، مع انه كان قديسا عظيما وملفانا عالميا • فعندما طلب اليه بالحاح اقتبال سر الكهنوت قال : « ان الكهنوت اناء من الصافي السلسبيل يدنو الكثيرون للارتشاف منه ولكن سرعان ما تحترق شفاههم من ملامسته لانه نقي طاهر ولا يمسه الا الانقياء الاطهار » وعاش عمره كله راهبا شماسا حتى قضى نحبه • وكان وجهه يتألق نورا وهامته تتكلل جلالا ومهابة كلما قام امام الله مصليا خاشعا • وكان يرى دائما لطيفا هادئا كالبحيرة الساكنة يخاطب بصوت بالكاد يسمع • وكان اثناء نومه يهدس بخلائق البداع العظيم فيجول ويصول في كونه الفسيح فتراه تارة يبتسم ابتسامة الطفل فتخاله غارقا في حلم مجنح أو حاضرا في محفل الملائكة السماويين ، وطورا ساهيا وأخرى سادرا ، وأخرى متهجدا • فكان ليله متصلا بنهاره، ونهاره صورة لما سيجول به خاطره في ليله • وهكذا انقضت حياته بعد جهاد طويل وتعب متواصل وسهر دائم ، مكملا سعيه حافظا ايمانه مقدما وزناته الرابحة لرب الوزنات وان الكنيسة المقدسة تطلب شفاعته منذ دفنته بديره بالرها والى اليوم وهي تذكره بفخر واجلال وتعتز بقداسته وفضائله وعبقريته ، وتكثر ما استطاعت من الكنائس والاديرة والمدارس على اسمه • وهوذا المدرسة الاكليريكية الافرامية والميتم الافرامي ، هاتان المؤسستان الموجودتان حاليا في ابرشيتنا لبنان قد شيدتا تيمنا باسمه الجليل وكنيستنا في طرابلس ايضا • فضلا عن الكنائس والجمعيات والمؤسسات الاخرى العامة في سائر الابرشيات في الوطن والمهجر والهند تحمل اسمه وذكراه العاطرة وهي تعمل جادة للتشبه بجهاده ونضاله في خدمة الكنيسة والمدافعة عن الايمان الارثوذكسي ومقاومة كل البدع والهرطقات •

٧ ـ **مقتطفات من شعره :** لقد انشد ما افرام قصائد كثيرة في البتول الطاهرة واصفا مادحا أمومتها وحنانها الذي ابدته نحو ابنها وتكريم الكنيسة لها ، فاسمعه يقول : « لقد دعتني العذراء لاصفها وانا

متعجب ، فاعطني من رهبتك يا ابن الله ، واغن قيثاري من موهبتك ، لاصوغ صورة لوالدتك المملوءة محاسن » وقال ايضا ، يا معشر الفتيات افرحن بالبتول المملوءة عجبا التي ولدت جبارا قيد الشيطان واسره لئلا يغرر بعد اليوم بالفتيات ، ذلك المتمرد الاثيم كان قد غرر بامكنّ حواء فأكلت من الثمرة المهلكة · اما اختكن مريم فقد اجهزت على شجرةالموت يوم ولدت ثمرة الحياة · لقد حلت النار في احشائها · وضمتالحبيب الى صدرها ومسّت الجذوة باصابعها وحملت الشمس في احضانها · فما ارهب التحدث عن السر العظيم · لقد اعطت مصور الاجنة في الارحام وولدت بديع الكائنات · سقت مقيت العوالم حليبا نقيا ، فمن يجسر على التحدث عن هذا العجب ؟ تحمل بيديها رضيعا وفي جسدها الطاهر آية البكارة · يفور الحليب في ثدييها ويثور ، دون ان يضطرب قلبها البكر ، ففي كل يوم عجيبة جديدة ، لقد لاحظت بأنها تحمل صغيرا وبتوليتها محفوظة · فزودها هذا الامر الجديد بقوة فهمت معها بأن من تحمله انما الله هو ·كانت حريصة على اخفاء هذا السر العجيب وعرفت من يكون وابن من هو تلك الثمرة الحلوة التي كانت تحملها ، لانها كانت حكيمة في كل شيء · وقال ايضا « طوباك يا مدينة افراثا أم المدن والسلاطين ، لان منك أشرق رب الملوك ، لقد بشرك ميخا منذ البدء عن حياته غير المدركة ، فطوبى لعينيك اللتين ابصرتاه قبل كل أحد ، وجعلك اهلا لتتأمليه عند شروقه وهو مصدر البركات وبدء الافراح والمسرات · وقد حملته قبل كل أحد » وقال واصفا ميلاد السيد المسيح وحضور الرعاة : « بميلاد الابن حدثت ضجة عظيمة في ببت لحم ، فقد انحدر الملائكة وسبحوا هناك فكانت اصواتهم رعدا مدويا ، وعلى صوت التسبيح هذا هب الصامتون وسبحوا الابن وحملوا مقدمين الحمل الرضيع لخروف الفصح ، البكر للبكر ، الذبيح للذبيح ، حمل الفصح لحمل الحق ، منظر جميل يقدّم حمل لحمل · اقترب الرعاة وسجدوا له بعصيهم ، سلموا عليه وهم يقولون : السلام يا عظيم الرعاة تشكر عصاك عصا موسى يا راعي الجميع ، يشكرك موسى الذي كانت حملانه ذئابا ، وخرافه كالتنانين ، ونعاجه حيوانات مفترسة · فقد هاج قطيعه في البرية المخيفة ووثب عليه · يشكرك الرعاة ، لانك انت المسالم

بين الذئاب والخراف داخل الرعية • قصدت عجائز قرية داود ابنة داود وباركنها وقلن طابت أرضنا وقد أنارت اسواقها أشعة يسًى • اليوم يثبت عرش داود بك يا ابن داود » •

واسمعه يقول في وصف الرسل الاطهار عندما اجتمعوا في علية صهيون يوم الخمسين » لقد اجتمع الرسل الحملان الوديعة في العلية ليقتبلوا ذلك الوعد الذي قطعه معهم مخلصنا • فبصلاة اولئك الاثني عشر الذين اخترتهم لاكرامك ، بارك بنعمتك اشهر السنة الاثني عشر• قالت البيعة للرسل لقد دخلتموني وانرتموني وجعلتموني كابنة الملك التي يجهلها الرؤساء • فالمجد لمن وزع المنح لرسله في عيدين في أحدهما جسده ودمه وفي الثاني روحه وقوته • واسمعه يشيد ايضا بجهاد الشهداء ويصف بطولاتهم مخاطبا اياهم قائلا : أيها الشهداء الذين أنشدوا للابن الحانا شجية في غمرة جهادهم ، هوذا البيعة واولادها تشيد وتعيد يوم ذكراكم ، لانها نمت باستشهادكم أيها المظفرون وهي تفرح وتسر كل يوم بذخائر عظامكم•لقد حل الروحالقدس في كل بقعة قضى فيها الشهداء وتقطعت أوصالهم • فأحال تلك البرية منشرا للامن والسلام • المجد ليمينك القادرة يارب التي كللت الشهداء المجاهدين وشجعتهم في الميدان وضفرت فوق رؤوسهم أكاليل النصر •

ووصف آلام السيد المسيح باسلوبه الجميل الاخاذ قائلا : الله خلق البرايا بمسيحه ، والايدي التي جبلت آدم سمرها ابناء آدم » وقال أيضا لقد سار مع تلاميذه بكر اللاهوت وجاء بذاته للتضحية لاجل الخطاة ليصالح اباه المحجوب بدم ذاته الزكي • لقد جربك شعبكفعرف مقدار محبتك له أيها الحنون ، اذ اسلمت ذاتك لاجله لترجعه الىموطنه الاول ، واحتملت الآلام والصليب فمنحته حياة الابد » وقال عن لسان الرب عندما خاطب ذلك الرجل الذي أكل في بيته الفصح « في بيتك تكمل الاسرار التي اشارت اليها النبوات وعندك اضحي بذاتي لسعادة جميع الشعوب ، عندك أخطب الكنيسة التي اقتنيتها منذ البدء ، وفي بيتك اكتب لها المهر بدمي الغالي •

وقال ايضا « هل كان الرسل يبكون ربهم الذي سيموت أو التلميذ الذيسينفصل؟فربهم حبيبورفيقهم عزيز والحادثتان مريرتان،

فيا للمصيبة على فقدانك يارب ، ويا للكارثة على هلاكك أيها الرفيق · « لقد غمس مخلصنا الخبز واعطى ليهوذا بن سمعان ، فدخله الشيطان وخرج وجاء بالصالبين ، لملم الظلام ظله الذي هـو صدى الليل ، وأتى ليقبِّل مصدر النور ، وقلبه يصوغ شرا ، السلام ملء شفتيه ، والسهم لاط في فكره · قرَّب الظلام شفاهه من فم الشمس فلم تعد تنير · قال الشرير : السلام لك سيدي فأحاطته جماعة الاثمة · ماذا نقص عليك ولم اعطك اياه ؟ لكي تبغضني وتسلمني يا تلميذي ؟ ماذا اعطـاك قايافـا لتسلمني اليه فيقتلني ويصلبني ؟ ما هو مقدار الرشوة الذي منحك اياه الكهنة ؟ وما هو المبلغ الذي بسطـه لك حانان ؟ أبهذه المكافأة يجازي التلاميذ معلميهم ؟ من حسدك أيها التلميذ ؟ ففصلك عن زمرة اخوتك ؟ كنت يمينيا وصغت مؤامرة مع القتلة ، كنت سراجا جميلا ، فنفخ فيك العدو وأطفأك · فتبا لك لتيهان سفينتك وضياع تجارتك كلها ·

أجل « لقد قبض الاشرار على مخلصنا ، وزجـوه في دار الحكم ، وقرب موعد انكار سمعان لمعلمه ، اذ لا يمكن بطلان قول الرب له : بان ستنكرني في هذه الليلة ثلاث مرات · فالجارية قد تلقته بالسؤال أيها الرجل انت تلميذ يسوع · فأجابها مقسما لاعنا بأنـه لم ير الرجـل المذكور · فما اغنى نعمتك يا الهنا التي لا نستطيع وصفها وتقديرها ، يامن لاجلنا كنت تهان وتحتقر » وانت ياعبد حانان اللعين ، أيها الشقي الذي احتقر جابله ، ياليتك لم تخلق انسانا لانك ذقت ميتتين · الواحدة بعبوديتك اللعينة والثانية الغضب على جسارتك ، فيا ويلك من عبـد جسور استُعبِد لسيدين : لعبودية الطبيعة وعبودية الشيطان فملعون أنت من كل البشر على الدوام ·

**٨ ـ مار افرام في وصيته الاخيرة :** اجتمع تلاميذ المعلم الكبير في ليلة كئيبة حول سريره وهو يكاد يلفظ انفاسه الاخيرة ويستودع الارض لابنائها · هناك من تلك الصومعة الدهرية التي سمعت انغام صاحبها وطوت اسراره الخالـدة طارت روح افرام الى الرفيق الاعـلى ترفرف بأجنحة الفوز والغلبة الكاملة لتنضم مـع اجواق اللهيب · كنت ترى سراجا مطفطفا كان ينشر خيوطه الباهتة على جدران الصومعـة ، ولكن نور القداسة والطهر كان يشع من جبين افرام رغم شحوبه ، وقد شعر

بالروح ان لحظات خاطفة رهيبة تفصل بينه والابدية ⋅ ففتح فاه لتلاميذه قائلا : انني افرام اعطيكم وصيتي وانا على سرير الاحتضار مخلفًا للجميع ما اقتنيتـه من ذكريات ⋅ وتطلع الى سقف الصومعـة بانبساط نفس وارتياح ضمير ممزوجين بالتواضع البليغ الذي عاشه في حياته وعيناه دامعتان وقال : « ويل لي عندما أقف أمـام منبر المسيح ذلك الديان العادل ، يا يسوع احكم لي برحمتك وتعهدني بعفوك ⋅ ثقوا يا أحبتي انني لم اشك في قدرة الله مطلقا ولم أرتاب في كنيسته ⋅ لم اقتن ذهبا ولا فضـة ، لان الرب اوصانا لا تقتنوا شيئا للطريق ⋅ اذكروني في صلواتكم دائما ، ولا تخالفوا وصيتي أو تنقضوها ⋅ لا تدفنوني تحت المذبح ولا بين الشهداء لانني أثيم ذليل ⋅ أخاف الدنو من رفاتهم ، واني كالهشيم اذا دنت منه النار احترق ⋅ يا اخوتي لا تدفنوني بقبر مزين فانني قبر مليء بالخطايا والمعاصي ⋅ بل اقبروني بين الغربـاء وحيث يدفن المساكين واذا ما جاء ابن الله يدعوني ويبعثني من لحدي ويشملني بعطفه ومراحمه ورضوانه ⋅ اكتبوا عباراتي على صفحات قلوبكم واحذروا من الكفـرة الملحدين الذين يتقمصون كالحملان وهم ذئاب خاطفـة ⋅ كلماتهم معسولة ووعودهم مصقولة ، ونواياهم علقمية مـرة ⋅ انصتوا مليا الى كلماتي ولا تنحرفوا عن عقيدتي ⋅ انني استودعكم الله يا احبائي فصلوا علي ⋅ وانت أيتها الارض الوداع لك ولابنائك الذين أسأله تعالى ان يمتعهم بالامن والسلام ويزرع المحبـة والاخاء بين صفوف كنيسته ثم أكد المقدمة بالخاتمة مكررا نصها بقوله « أنا افرام الراحل هـا أنذا اكتب وصيتي شهادة للتلاميذ من بعدي ، كونوا مواظبين عـلى الصلاة نهارا وليلا ⋅ فان الفـلاح الذي يحرث ويثني تجيد غلاتـه ، لا تكونوا كسالى فتنبت حقولهم أشواكا ، بل اعكفوا على الصلاة لان من يتوق اليها كثيرا يستفيد منها في العالمين ⋅

وقد وصف مار غريغوريوس النوسي ( أسقف نيصص ) انتقال القديس افرام بكلمات رقيقة تشف عن شاعرية كاتبها الفياضة وروحه العالية من جهة ، وعن المكانة السامية التي يحتلها بين اباء الكنيسـة وعلمائها من جهة أخرى ، فيقول : « لقد أذنت ساعة الرحيل فشخص

القديس افرام بعينيه الى السماء وانتقلت نفسه الى ميناء الملكوت السماوي، وانضمت الى نفوس الابرار والقديسين تتقدمها فضائله السامية · ما أحلاها من ميتة وما أشهاه من انفصال · انه انتقـال مبارك لا يدعو صاحبه الى التأسف والحسرة ، وانها جنازة جميلة شهيـة لا تخلّف وراءها حزنا وكآبة بل سلوة وعزاء ، لان موت الابرار في هـذه الحياة هو انتقالهم من الموت الى الحيـاة ومن الشقـاء والتعاسة الى السعادة والغبطة الكاملة » ·

٩ ـ **مار افرام في ذمة الخلود :** وفي احدى ليالي حزيران اللاهبة من سنة ثلاثمائة وثلاث وسبعين في لحظـات تفيض بالرهبة والخشوع طارت روح افرام الى باريها ورقد بسلام بين أيدي تلاميـذه المحبوبين الودعاء ، فعبقت الصومعة بأريج القداسة الذي تضوع من جثمانه الطاهر، وانتشرت روائح البخور والعطور في أرجائهـا · وعندها وقف اليراع الذي طالما دبج الروائع الخوالد والبدائع التوالد ، واللسان الذي نكث كل جميل وطريف ونثر كل عزيز وحريز ، وتقطعت أوتار تلك القيثارة التي لم تسلم الا ليد افرام·وبكته الكنيسة بأسرها بعد ان كان يشاطرها افراح ابنائها واحزانهم · ودفن في ديره بالرهـا الذي اغتصبه الارمن مؤخرا · هذه كانت نهاية مار افرام السرياني · ولكن هل انتهت حياته بموته الجسدي ؟ لا لعمري فأن الرجال العظام يضع الموت حدا لحياتهم الزمنية ويفتح لهم سفرا جديدا لحياتهم المعنوية وخلودهم · فان ذكراهم تتجدد في القلوب والارواح وآثارهم تسجل بأحرف من نار ونور لا يأتي عليها الدثور، ويخلد لهم في سجل العبقرية والنبوغ والمجد اسما جديدا تسطّر فيه مآثرهم الغراء ومكارمهم الحسناء واعمالهم الجبارة وحياتهم الزاخرة بكل عظمة ومفخرة ، والكنيسة المقدسة تعيـد له في السبت الاول من الصوم الاربعيني المقدس كل سنة ·

# مار افرام الملفان

في

الكنيسة السريانية

وهي

المحاضرة التي القاها نيافة مارديونيسيوس بهنام متروبوليت
لبنان للسريان الارثوذكس في مركز حركة الشبيبة
الارثوذكسية في المصيطبة

سنة ١٩٦٢

طبعت على نفقة جمعية مار بطرس وبولس
للسريان الارثوذكس ـ بيروت ـ المصيطبة